تَرِكة برنارد لويس الملتبِسة

مارتن كرامر عبد الرحمن أبو ذكري

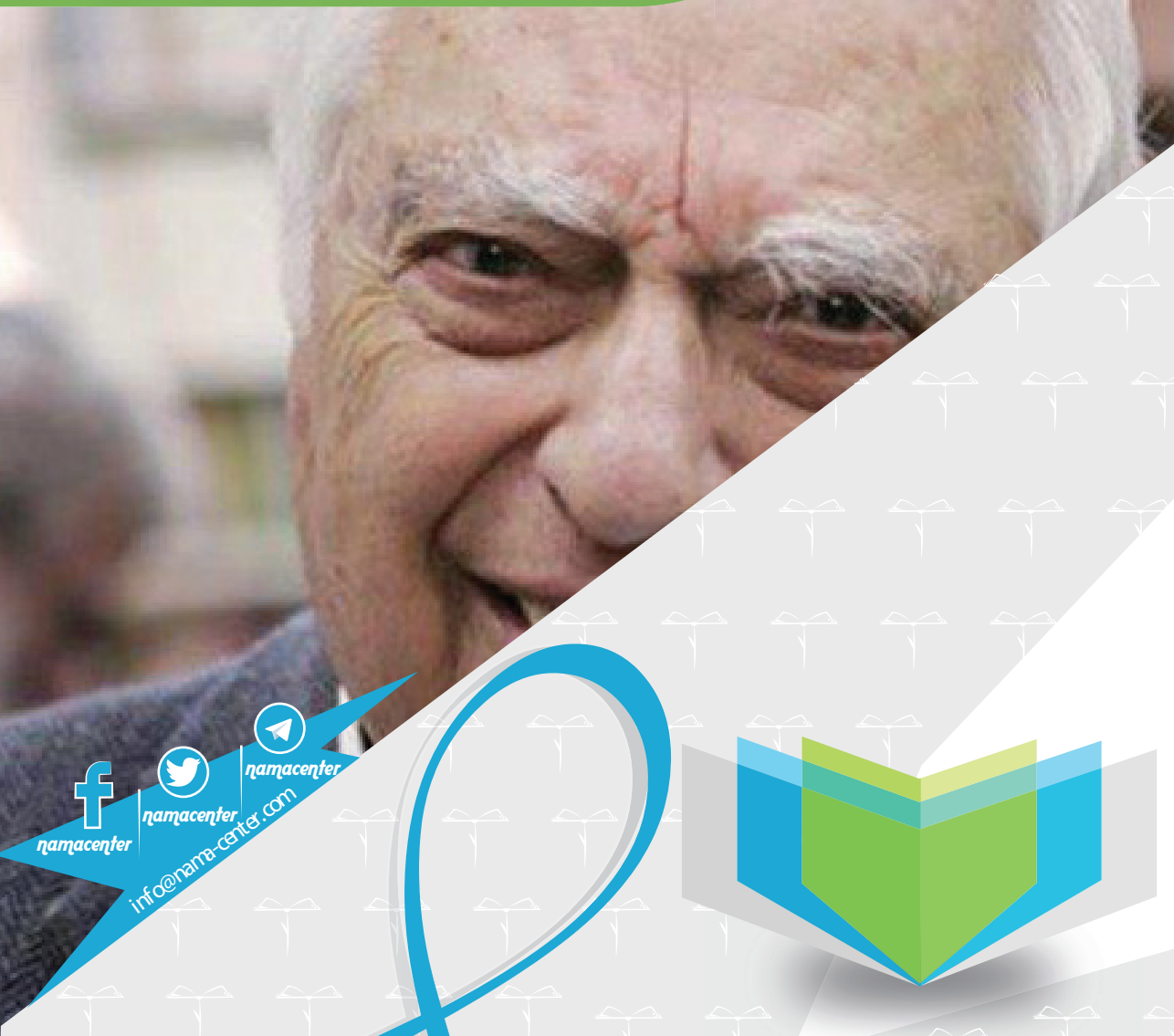

namacenter
namacenter
namacenter
info@nama-center.com

نماء

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

تَرِكة برنارد لويس الملتبِسة

مارتن كرامر

نقله إلى العربيَّة: عبد الرحمن أبو ذكري

تَرِكة برنارد لويس الملتبِسة[١]

مارتن كرامر[٢]

نقله إلى العربيَّة: عبد الرحمن أبو ذكري

توفي برنارد لويس، مؤرِّخ الشرق الأوسط؛ في التاسع عشر من مايو الماضي، وقد أوشك على بلوغ العام الثاني بعد المئة. وما من أحد سواه -من المعاصرين- قد أسهم بمقدار إسهام لويس ليُعلِّم الغرب ويؤثر في رؤيته للعالم الإسلامي والشرق الأوسط. وقد أكسبته مسيرته العلميَّة الطويلة في المملكة المتحدة، والتي تَبِعها بروزه كمفكر ذائع الصيت في الولايات المتحدة الأمريكية؛ قُراءً حول العالم. فبعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر صار شخصيَّة شهيرة؛ إذ يعترِف: «لقد شَهَرني أسامة بن لادن». وقد صار الكتابان القصيران اللذان نشرهما بعد الضربات الإرهابيَّة من الكتب الأعلى مبيعًا على لائحة جريدة نيويورك تايمز.

امتدَّ إكبار لويس أبعد كثيرًا من الجمهور العام. إذ اشتهر كذلك بوصفه محاورًا ووسيطًا موضع تبجيل واحترام من رجال الدولة والسياسيين الأتراك والأردنيين، ومن شاه إيران الأخير، ومن رؤساء وزراء إسرائيل، ومن الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دبليو بوش وفريقه. بل رؤي بوش وهو يحمل نسخة مؤشرًا عليها من أحد مقالات لويس. وبتدشين «الحرب على الإرهاب»[٣]

---

1 - https://www.foreignaffairs.com/articles/middle-east/2018-06-07/conflicted-legacy-bernard-lewis.

٢ - مفكر وأكاديمي أميركي من أصل إسرائيلي. كان برنارد لويس أستاذه المشرف إبَّان مرحلة الدكتوراه في جامعة پرنستون. وهو حاليًا مُدرس تاريخ الشرق الأوسط في كلية شيلم بالقدس، وزميل زائر في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى. وقد اشتهر بأنه أول من استعمل اصطلاح «الإسلام السياسي Political Islam» في بحثه المنشور عام ١٩٨٠م، بنفس العنوان. (المعرِّب)

3- https://www.foreignaffairs.com/articles/2018-05-11/never-ending-war-terror.

وإطلاقها هي وتتمتها العراقيَّة؛ صار الرجل موضوعًا للملفات التي تُعِدَّها المجلات وقصَّة لأغفلتها. كان برنارد لويس يعرِف الشرق الأوسط، وكانت أميركا تظُن أنها تعرف لويس.

أم أنها كانت تعرفه؟ «عند البعض أنا عبقري أشم، وفي عيون آخرين أنا تجسُّد للشيطان»، كما صرَّح لويس نفسه في عام ٢٠١٢م. وعلى الرغم من تأليفه ما يزيد على الثلاثين كتابًا (بما فيها مذكراته)، ومئات المقالات، ومباشرته لعدد لا يُحصى من الأحاديث الصحفيَّة؛ فقد أسيء فهم لويس إلى حدٍّ بعيد. وقد عادت الكثير من نماذج سوء الفهم -الكامنة منذ لزم الرجل الصمت قبل عدَّة سنوات- للظهور في النصوص التي تصدَّت لنعيه، إما مُختلطةً بالإجلال أو مُمتزجةً بالنقد اللاذع.

جزء من هذا محض نتيجة لكونه مُعمِّر. ففي الحادي عشر من سبتمبر،[٤] كان قد بلغ الخامسة والثمانين، وقد نشر كتابه الأول عام ١٩٤٠م؛ أي قبلها بأكثر من ستين عامًا. لقد كان بالكاد مغمورًا حين صار «مشهورًا»، لكن جمهوره الأعرض قد اكتشفه فقط خلال العقد الأخير من مسيرته العلميَّة التي بلغت سبعين عامًا. وعند أمثالي الذين التقوه في وقتٍ أسبق كثيرًا (صرت تلميذه في جامعة پرنستون عام ١٩٧٦م)؛ فلا يبدو أن المتأخرين عنَّا قد استوعبوا الوزن والحجم الحقيقيين لإسهامه.

وسيستغرقنا الأمر آلاف الكلمات لتبديد الخرافات العديدة التي عَلقَت بالرجل، بدءًا بالخرافات المبتذلة الفجَّة («مُخطَّط برنارد لويس» لتقسيم الشرق الأوسط وتجزئته إلى دويلات أو «عقيدة لويس» في «غرس» الديمقراطية بالقوة)، وصولًا إلى الخرافات التي يُفترض أن أصحابها من العالمين ببواطِن الأمور («برنارد

4 - https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2015-12-10/terrorism-american-psyche.

لويس الأب الروحي لغزو العراق»). وهو ما يستحِق أن نُفرِد لتفنيده موضعًا آخرًا، ونهجًا قاطعًا. أما هنا، فدعني أستلفِتُ انتباهك لثلاثة من نماذج سوء الفهم على وجه الخصوص، والتي لا تصدُر عن غل وضغينة، بل عن فشلٍ في الإبحار لمسافات أطول والغوص لمسافات أعمق في البنية العظيمة لإنتاج برنارد لويس الفكري.

«المستشرق الأخير» أم العلَّامة الرائد؟

أول نماذج سوء الفهم هو الاعتقاد بأن برنارد لويس كان «مُستشرقًا»، أو حتى «المستشرق الأخير»؛ وهي التسمية التي تُطلق عليه أحيانًا بوصفها طعنًا عليه وأحيانًا أخرى بوصفها وسام تكريم. وقد تعزَّز هذا اللبس من خلال نزاع لويس المشتهِر مع أستاذ الأدب الفلسطيني-الأميركي إدوارد سعيد، الذي اتهم المانفستو الذي نشره عام ١٩٧٨م، بعنوان «الاستشراق»؛ الأكاديميين والكتاب المنتمين للتقليد «الاستشراقي» بتغذية التعصُّب ضد الإسلام والعرب. وقد هبَّ لويس مُدافعًا عن هؤلاء العلماء؛ إذ كانوا هم الذين قوَّضوا التحيُّزات الغربيَّة القروسطية ضد الإسلام، وذلك إذ ولجوا إلى المصادر الإسلامية الأصليَّة مباشرة واشتغلوا بسبر أغوارها. وقد احتج لويس بأن هذا اللون من الاستشراق الأكاديمي/العلمي يُعَدُّ واحدًا من أنبل انتصارات الاستنارة الغربيَّة.

لكنه في دفاعه عن المستشرقين، لم يكن لويس يتصرَّف بوصفه واحدًا منهم. صحيح أنه قد تتلمذ على المستشرق البريطاني المشهور سير هاملتون غِب، وأنه كان يعرف النظام الاستشراقي معرفةً حميمة، وأنه كان موهوبًا في اللغات موهبةً من شأنها أن تصير موضع حسد أي فيلولوجي (فقيه لغوي)؛ إلا

أن لويس لم يكن «المستشرق الأخير» («لقد مضى المستشرقون»؛ كذا أصرَّ لويس). كان برنارد لويس أول مؤرِّخ حقيقي للشرق الأوسط،[٥] ويُعتبر رائدًا في تطبيق أحدث المناهج في التأريخ الاجتماعي والاقتصادي الأوروبي على ماضي الشرق الأوسط.

وقد اكتظَّت دراساته، الميسورة القراءة إلى حدٍّ كبير؛ عن كل حقبة زمنيَّة بتفاصيل تاريخيَّة آسِرة عن الحياة اليوميَّة، إذ انتقاها من المصادر المحليَّة. وقد كان أول غربي يُسمح له بزيارة الأرشيفات العثمانيَّة، كما كان أول عالم يقرأ النصوص الإسلاميَّة للحقب المبكِّرة بعين مؤرِّخ مُدرَّبة (بوسعي أن أشهد، بوصفي قد تولَّيت يومًا العناية بمكتبته ذات الثمانية عشر ألف مجلَّد؛ أنه كان يحوز كل سجل تاريخي عربي وفارسي وتركي مُهم). وقد انتقد لويس، بوصفه زميلًا أكاديميًّا شابًا؛ أسلافه المستشرقين بسبب ضيق أفقهم، ودعا إلى «دمج تاريخ الإسلام في دراسة عموم تاريخ الإنسانية». وما من أحد بذل جهدًا أكثر من لويس للنهوض بهذا الهدف المراوِغ.

ومن خلال بحثه التاريخي، بلغ برنارد لويس استبصارًا جوهريًّا نفخ الحياة في كل كتاباته التالية: أن الحضارة الإسلاميَّة قد حازت، في «عصرها الذهبي»؛ كل المتطلَّبات التي تلزمها لإنجاز قفزتها إلى الحداثة قبل أن تفعل أوروبا الأبرشيَّة ضيقة الأفق. ومع هذا، فقد أَسِنَت واضمحلَّت. وقد أشار ذات مرَّة إلى أن «بروز الغرب وصعود نجمه قد حظي بدراسة كثيفة، أما انحطاط سُلطة الإسلام فقد نال القليل من الاهتمام الأكاديمي الحقيقي»، وهو ما سيصير مشروعه، الذي سيبلُغ في مسعاه لإنجازه خُلاصة مثيرة للاهتمام: أن نُخب الإمبراطوريَّات المسلمة الكبرى، خصوصًا العثمانيون؛ كانوا على يقين من

5 - https://www.foreignaffairs.com/articles/middle-east/2005-05-01/freedom-and-justice-modern-middle-east.

الغلبة التي فضَّلهم الله بها، فلم يروا من سبب مُطلقًا للتغيير. وقد انتقصوا من الصعود المُطرِد لأوروبا. وبحلول الوقت الذي تبلور فيه إدراكهم للمشكلة وطرائق علاجها؛ كان الأوان قد فات.

وهكذا بدأ سباق يائس لإيقاف اضمحلال العالم الإسلامي، وكسوف شمسه على يد أوروبا النَشِطة. وقد أشار العديد من المراقبين الغربيين إلى العفن المستشري، لكن لويس قد كشف عن وجهة نظر المسلمين فيما جرى لهم. لقد كان الإصلاح، والتحديث، والأيديولوجيات القوميَّة والإسلاميَّة، والإرهاب؛ كُلها استراتيجيَّات هدفها أن تُعيد للمسلمين بعض مظاهر السلطة التي حازوها ووظَّفوها بنجاح لما يزيد على الألفيَّة، والتي فقدوها في غضون عدَّة أجيال فحسب. وقد كان أعظم كتب لويس مبيعًا، «ما الخطأ الذي وقع What Went Wrong»، الذي نُشِر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة؛ يستقطِرُ مُكتشفاته العديدة عن كيفيَّة محاولة المسلمين وفشلهم في استعادة عالمهم. وقد كان مسعى تنظيم القاعدة (ولاحقًا الدولة الإسلامية في العراق والشام) لإعادة إنتاج مظاهر الحياة في القرن السابع الميلادي أشد هذه المحاولات يأسًا لعكس مسار التاريخ.

***

استحوذت قضيَّة اضمحلال الحضارات على لويس، لأنه كان يعرِف كُلفتها الإنسانيَّة. إذ كان بلده لا يزال يحكُم ربع البشريَّة ويُهيمن على ثُلث الكتلة الجغرافيَّة للعالم، حين حصل هو على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٣٩م. وقتئذ، ومثلما كان لويس على شفير تدشين مسيرته الأكاديميَّة والعلميَّة؛ خاض بلده الحرب ضد قوى شريرة اجتاحت أوروبا وحطَّمت الحضارة الغربيَّة تقريبًا. وقد قُتِل ثلاثون ألفًا في مدينته لندن، جرَّاء القصف الألماني. وهو

يستعيد ذكرى هذه الحوادث؛ إذ يقول: «قصدت المخابئ في محطات مترو الأنفاق، لكني سرعان ما أنهكت من هذا، وقرَّرت أن أبقى في فراشي وأخاطر مُجرِّبًا حظي».

وبعد الحرب، انحلَّت الإمبراطوريَّة البريطانيَّة تدريجيًّا، وانتهت عظمة بريطانيا. وقد اعتاد لويس، حين تقدَّم به العمر؛ على ترديد المثل الفرنسي السائر: «كل شئ يمضي، كل شئ ينكسِر، كل شئ يفتُر Tout passe, tout cassé, tout lasse». فقد شَهِدَ بأم عينه تداعي إمبراطورية عظيمة، والتمس أسباب الاضمحلال الحضاري الكامنة في تاريخ الإسلام ومثاله. وقد كانت رسالة لويس اللاحقة للولايات المتحدة، والتي أنقذت الغرب؛ هي التحذير من تكرار الرضا المتعجرِف عن النفس، الذي كان طليعة الاضمحلال العاجل للإسلام العثماني ومن بعده بريطانيا.

صدام أم مواجهة؟

وهذا يحملنا إلى ثاني نماذج سوء الفهم. إذ وُسِمَ لويس بأنه أبي «صدام الحضارات»، المصطلح الذي قبسه صمويل هنتنغتون (بعد أن عزاه إلى صاحبه) لمقالته الشهيرة عام ١٩٩٣م في مجلة فورين أفيرز.[٦] كان لويس قد استخدم العبارة في وقتٍ جدِ مُبكر عام١٩٥٧م ليصِف الجانب الأعمق من الصراعات المعاصرة في الشرق الأوسط (إذ كتب: «من الأفضل النظر إلى السخط الحالي في الشرق الأوسط لا بوصفه صراعًا بين دول أو شعوب، بل بوصفه صدامًا بين

6 - https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/1993-06-01/clash-civilizations.

حضارات»). وقد أعاد استعمال العبارة في كتاباته التالية، وأكثرها شهرة مقالة العام ١٩٩٠م: «جذور الغضب الإسلامي The Roots of Muslim Rage».

إلا أن هنتنغتون قد تجاوز لويس مُعتبرًا أن «الصدام» هو قتال مُستمر محتوم بين كل حضارات العالم، إذ تُغذيه الاختلافات الثقافيَّة. لكن لويس كان يقصد شيئًا آخر بسكه المصطلح، إذ اعتقد أن الإسلام والبلاد المسيحيَّة (لاحقًا الغرب) خصمان فريدان، لا بسبب اختلافاتهما، وإنما بسبب اشتراكهما في الكثير: الميراث الإغريقي-الروماني، والتوحيد الإبراهيمي، وحوض البحر المتوسط.

ومن الجلي أن هاتين الحضارتين الشقيقتين كثيرًا ما تتصادمان.[٧] لكن تشابُههما إلى هذا الحد جعلهما تستعيران من بعضهما البعض، وتتبادلان الكثير، وتُترجمان عن لغات بعضهما البعض. وفي عام ١٩٩٤م، وبعد ذيوع أطروحة «الصدام» على يد هنتنغتون، سعى برنارد لويس للنأي بنفسه عنها؛ ففي العام نفسه، راجع ونقَّح كتابه الكلاسيكي: «الشرق الأوسط والغرب The Middle East and the West»، الذي صدر للمرة الأولى عام ١٩٦٤م؛ وفي طيات هذه المراجعة غيَّر لفظة «صدام clash» لتصير «مواجهة encounter». وقد أخبرني لاحقًا أنه شعر أن لفظة «صدام» كانت «شديدة الخشونة».

وفي عام ١٩٩٦م، حين نشر صمويل هنتنغتون كتابه: «صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي»؛ احتفظ لويس مرَّة أخرى بمسافة بينه وبين هذه الأطروحة. وعلَّق قائلًا أن «العالم شَهِد صراعات ضخمة في الماضي بين العالم المسيحي وبين الإسلام، وأن البعض على الجانبين ما زالوا ينظرون إلى تاريخ العالم بوصفه حربًا مُقدَّسة بين المؤمنين والكفار». لكن هذا ليس قدرًا مقدورًا؛ فكما أفصح لويس: «بوسعنا تدشين عهدٍ جديد من التعايُش السلمي». لم يُنكر

7 - https://www.foreignaffairs.com/articles/middle-east/1997-01-01/west-and-middle-east.

لويس أبدًا سكه لعبارة «الصدام بين الحضارات»، لكنه قصد بها توصيفًا شديد الجزئيَّة للماضي والحاضر، ولم يُرِد لها أن تكون تنبؤًا بالمستقبل.

وعلى الرغم من ذلك، استشعر لويس امتعاض الشرق وهو يجيش، وكان هو نفسه أول من خَلُصَ إلى أن هذا الامتعاض سيتخذ صيغة إسلامية بصورة مُتزايدة. وفي وقتٍ جد مُبكر، عام ١٩٦٤م؛ رأى أنه من الجلي أن «الحركات الإسلامية وحدها هي التي يتجسَّد فيها الحافز والإلهام الشرق أوسطي الأصيل... إذ تُعبِّرُ عن أشواق جماهير السكان الغارقين في البؤس والفقر. ورغم أنها -إلى الآن- قد دُحرت جميعها، إلا أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة». وقد عاد إلى هذا الموضوع ثانية، عام ١٩٧٦م؛ في مقاله الإبداعي الرائد: «عودة الإسلام The Return of Islam». وقد استهزأ به الليبراليون الغربيون وسخِر منه القوميون العرب حين نُشر المقال في مجلة «كومنتري Commentary». إذ كانوا قد علَّقوا آمالهم وراهنوا بسُمعتهم على التقدُّم الأبدي الصاعِد للحداثة العلمانيَّة. فإذا صحَّ أن الإسلام قد «عاد»؛ فهذا يعني أنهم قد خابوا وأخفقوا.

لم يحتج لويس للانتظار طويلًا لتُبرأ ساحته، ولم يكن قد تنبأ بالثورة الإيرانية التي وقعت بعدها بثلاث سنوات؛ إلا أن وقوعها عزَّز سمعة فطنته، وزاد من صيت بصيرته. ثم جاءت ضربته الثانية عام ١٩٩٨م على صفحات دوريَّة فورين أفيرز،[٨] إذ نشر تحليلًا لـ«إعلان الجهاد» الذي أطلقه المتمرِّد السعودي المغمور آنذاك أسامة بن لادن. وفيه حذَّر لويس مرة أخرى من الرضا عن النفس والقناعة بالوضع القائم، ولكن بلا جدوى.

8 - https://www.foreignaffairs.com/articles/saudi-arabia/1998-11-01/license-kill-usama-bin-ladins-declaration-jihad.

وبعد الحادي عشر من سبتمبر، شرعت أمريكا بالإنصات إليه، تحديدًا لأنه سمع أصوات الإسلاميين المتطرفين حين لم يحملهم أحد على محمل الجد. إلا أنه طالما أصر أن تلك الأصوات لا تتكلم باسم الإسلام كله؛ إذ يقول: «كل من له معرفة معقولة بالإسلام يعلم أن أكثر المسلمين ليسوا مُقاتلين ولا ممن يتبنون خيار العنف». لقد كانت رسالة بن لادن تحريفًا شاذًا لطبيعة الإسلام وعقيدته في الجهاد. إذ أن القرآن يتكلم عن السِلم كما يتكلم عن الحرب».

احتقار وازدراء أم سلامة نيَّة وحُسن مقصد؟

أما ثالث نماذج سوء الفهم فهو التوهُّم أن برنارد لويس كان يحتقر «العرب» ويزدريهم. إذ انفجرت بعد وفاته المنشورات على موقع تويتر، وهي تحمل عبارات يُفترض أن لويس قد قالها لديك تشيني حين كان نائبًا للرئيس: «أعتقد أن أحد المهام التي عليك الاضطلاع بها هي أن تهوي على أم رأس العرب بعصًا غليظة؛ فهُم يُجِلّون القوة». وقد كان المصدر الوحيد لهذا «النقل» هو مستشار الأمن القومي الأسبق برنت سكوكروفت، الذي خمَّن -في حواره مع أحد الصحفيين- ما الذي قد يقوله لويس خلف الأبواب المغلقة. حقيقة الأمر أن أحدًا لم يسمع برنارد لويس أبدًا يفوه بشئ مثل هذا. لكن إذا تجاوزنا الاقتباسات والنقول الزائفة، فقد ذاعت وترسَّخت فكرة -كان إدوارد سعيد أول من غرسها- كون عمل لويس «أقرب ما يكون للبروباغاندا في مواجهة موضوع اشتغاله». (يُفترض أن الإشارة هنا إلى العرب بوصفهم موضوع دراسة لويس. أما بالنسبة للتُرك، فإن نُقاد لويس يدَّعون أحيانًا أن الأخير كان أحد أدوات البروباغاندا التي استعملها الأتراك). وقد ادَّعى أكاديمي آخر، ريتشارد بوليت؛ أن لويس كان «شخصًا لا يُحب الشعوب التي يزعُم أنه صاحب دراية بشؤونها... ولا يحترمها».

فإذا كان هذا صحيحًا، فما من تفسيرٍ معقول لكون بعض أمتن صداقات لويس، طوال الأعوام التي عرفته فيها؛ قد شملت أكاديميين وعلماء عرب بارزين. ففي جامعة پرنستون، كان أقرب رفقاء لويس المقرَّبين هو المؤرخ الاقتصادي المصري المولد: شارل عيساوي، الرجل صاحب العلم الغزير، والمماثل له في العمر. وقد استجلب مزاحهم المستغلِق الخبير إجلالًا ومهابة. وعندما اندلع الجدل حول «الاستشراق»؛ وقف عيساوي في صف لويس («يتعيَّن علينا أن نكون ممتنين أبدًا للمستشرقين، الذين علمونا الكثير»، كما صرَّح عيساوي لأحد الصحفيين). كان عيساوي في العادة يتتبَّع أفكار لويس عن كثب، كما في محاضرة ألقيت عام ١٩٨٦م (ونشرت لاحقًا) بعنوان: «صدام الثقافات في الشرق الأوسط». وقد اختلف عيساوي ولويس بشأن إسرائيل وفلسطين، لكن لويس، في إشادة ودود بعيساوي؛ كتب يقول: «لم يُعضد ما اتفقنا عليه صداقتنا، كما لم تُضعِف اختلافاتنا هذه الرابطة».

وفي جامعة پرنستون كذلك التقى برنارد لويس بالأكاديمي اللبناني المولِد فؤاد عجمي، الذي كان عمره نصف عُمر لويس آنذاك، وصار تدريجيًّا أحد مُريدي لويس. وقد كان عجمي هو الذي دبَّج في لويس أناشيد وترانيم شُكر في مناسباتٍ خاصة، وفاض حديثه المؤثر في الفعاليات التي تحتفي بلويس. كذا كان فؤاد عجمي هو الذي برهن على أن «ذخائر الإجلال التي يُكنها الكثيرون لبرنارد لويس في بقاع عدَّة من أرض المسلمين والعرب... وما لا يُحصيه عدٌّ من القادة العرب والإيرانيين والأتراك... يعرفون أنه لم يسبُر غور تاريخهم ويغوص في مادته مدفوعًا بسوء النية، أو الرغبة في الهيمنة». وفي المقابل، أهدى لويس أحد كتبه لعجمي؛ فكتب: «تقديرًا لعلمه، وصداقته، وشجاعته». وقد أسسا معًا رابطة أكاديمية لدراسات الشرق الأوسط كمنصةٍ للآراء المختلِفة عن السائد.

وفي حين اعتقد بعض العرب أن لويس «صهيوني» أكثر من اللازم،[٩] فإن آخرين قد أكبروه تحديدًا بسبب علاقته الحميمة بالقادة الإسرائيليين. ففي عام١٩٧١م، طلب السياسي المصري [السفير] تحسين بشير من برنارد لويس، بناء على تعليمات من أنور السادات؛ أن يُخبر رئيس الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير أن مصر حريصة على السلام. ولم يحمل لويس الرسالة فحسب، ناقلًا إياها من صديقٍ إلى آخر؛ بل أيَّدها وصادق عليها (رفضت مائير المبادرة، وقد تلا ذلك اندلاع الحرب بعدها بعامين). كذا، دائمًا ما جمع لويس بين زياراته لإسرائيل وتوقُّفه في الأردن؛ حيث كان يستضيفه الملك الحسين وولي عهده الحسن. «كانت علاقتي بالأسرة المالكة علاقة شخصيَّة وطيدة»، كذا كتب لويس إذ جعل عمَّان قاعدة له في العالم العربي. ومن المؤكد أنه لم يكن يعتقِد أن العرب والإسرائيليين محكوم عليه بـ»الصدام»، ولذا؛ أيد وساند اتفاق أوسلو (رغم اعترافه لاحقًا بأنه كان مخطئًا إذ توهَّم تخلي الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات عن الإرهاب).

وقد كان أصدقاء لويس العرب هم الذين أقنعوه، مهما بدا ذلك غير محتمل؛ أن الشعوب العربية مؤهلة للديمقراطية، ابتداءً من العراق. وخلال سنوات الحرب الباردة الطويلة، حين كان العرب خاضعين لأنظمة ديكتاتورية على الطراز الستاليني؛ رأى لويس حاضرهم بوصفه استمرارًا بسيطًا لـ»الاستبداد، بل استمرار للطغيان الذي أثمره التقليد السياسي الإسلامي». لكن انهيار الاتحاد السوفييتي حفَّز ونشَّط الحركات الديمقراطية في كل مكان. فهل كان العرب حقًا استثناءً من ذلك؟ لقد زار العراقيون لويس وقالوا له إنهم ليسوا استثناءً، وقد كان لويس مُستعدًا لتصديقهم. إذ كان قد عبر إلى مرحلة أخيرة ومتفائلة، راغبًا في أن يرى العرب يُشاركون العالم نعمة الديمقراطية.

9 - https://www.foreignaffairs.com/articles/israel/1976-10-01/anti-zionist-resolution.

تأمل -على سبيل المثال- مقاله قبل الأخير لفورين أفيرز. ففي عام ٢٠٠٥م، كتب لويس، في مقاله «الحرية والعدالة في الشرق الأوسط الحديث»؛[١٠] مُنكرًا كون الدكتاتورية تُشكِّل «الطريق القديم» للعرب. فهذا ببساطة «غير صحيح. ويكشف عن جهلٍ بماضي العرب، وازدراء لحاضرهم، وعدم اكتراث بمستقبلهم». إذ كانت الدكتاتوريات «جد دخيلة على أسس الحضارة الإسلامية. إن هناك قواعد وتقاليد أقدم بوسع شعوب الشرق الأوسط اتخاذها قواعد لبناءها».

والأمر مختلفٌ فيه، ومن الممكن أن يظل كذلك أبدًا. لكنه في سعيه لإثبات حق العرب في الديمقراطية، ابتداءً من العراق؛ لم يكن لويس يضطلع بدعاية مُضادة لموضوعه. بل على العكس، فقد كان يحتج بأنه ما من شئ استثنائي في العرب أو الإسلام قد يستثنيهم ويستبعدهم من مستقبل الإنسانية المشترك. «إن الشرق الأوسط[١١] إقليم عظيم، موطن حضارات قديمة وشعوب موهوبة مُبدعة، وما من شكٍ لدي على الإطلاق في أن بوسع أهل هذا الإقليم بناء مجتمعات حُرَّة»، كذا صرَّح في عام٢٠٠٢م. لم يكن هذا تحليلًا مسوَّغًا، مشابهٌ لقراءته البصيرة للأيدولوجية الإسلامية وحركياتها؛ بل كان نبوءة ختامية، قُصِدَ بها حل التناقُضات الكامنة في وفاء لويس المزدوج للإسلام وللغرب.

إن الأسئلة التي طرحها لويس، والإجابات التي قدَّمها؛ ما زالت في بؤرة الممارسة السياسية، لهذا السبب تمخَّضت وفاته عن فيض من المشاعر، سواء الموالية أو المعادية له. لكن لويس قد صار هو نفسه الآن موضوعًا تاريخيًّا. وقد خلف لنا توجيهات وإرشادات تمكننا من تقييمه؛ إذ كتب: «على المؤرخ

10 - https://www.foreignaffairs.com/articles/middle-east/2005-05-01/freedom-and-justice-modern-middle-east.

11 - https://www.foreignaffairs.com/articles/middle-east/1992-09-01/rethinking-middle-east.

أن يجتهد ما وَسِعَهُ ذلك لتحقيق أكبر قدرٍ ممكن من الموضوعية. لا أحد يُمكنه الانفصال كُليًّا عن وقائع وأحداث العصر الذي عاشه... إلا أن العالِم لن يُفسح الطريق لتحيُّزاته حتى تتسلَّط، بل سيكشف عنها، ويتحكم فيها، ويأخذها في حسبانه، ومن خلال مسار من الانضباط الفكري الذاتي؛ يُقلل من أثرها ومفعولها إلى الحد الأدنى».

والسؤال عما إذا كان برنارد لويس قد اقترب من هذا المثال هو سؤال مشروع، لكن لا يُمكن الإنصاف في إجابته إلا بالسمو إلى معاييره.

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء